الإهـداء

إلى أستاذى الفاضل /

أ. د. عونى عبد الرءوف

اعترافاً بفضله وتقديراً لعلمه ،

فهذا العمل جنى لما غرست يداه .

محمد العبد

مقدمـــة

إن التحليل الإبداعى للدلالة هو فى مبدئه ومنتهاه تحليل لغوى أسلوبىStylolinguistic Analysis.وليس الاختلاف بين محلل الأسلوب ومحلل الدلالة اختلافاً فى المنهج، ولكنه اختلاف فى الغاية؛ فمحلل الدلالة لا يختار سماته اللغوية من أجل أهميتها اللغوية فى ذاتها، أعنى من أجل إسهامها المجرد فى تشخيص السمات الأسلوبية الكيفية العامة للنص، ولكن من أجل الكشف عن تأثيرات تلك السمات اللغوية فى إبداع المعنى، أى من أجل الكشف عن الفعل الإيجابى الخاص بكل سمة منها، فى التعبير عن المعنى تعبيراً جماليا موحيا، فى مقابل التعبير التوصيلى العرفى المباشر. وتلك مقابلة أخرى بين الفنى المؤثر والعرفى الموصل.

ويتوقف نجاحنا فى الكشف عن دور كل سمة لغوية فى إبداع الدلالة على عدة عوامل منها: قدرتنا على حصر تلك السمات اللغوية ذاتها، ومنها صحة الأساس الذى يبنى عليه الحصر والتحديد علميا. وهنا ينبغى أن تكون التصورات والمفاهيم التى نحدد على أساسها دور كل سمة فى إبداع المعنى واضحة محددة من الناحية النظرية والإجرائية. ومنها ــ وهذا هو أهم العوامل ــ قدرتنا على تحويل الاستجابات والانطباعات التى تثيرها كل سمة، أو لنقل الآن كل مثير Stimuli ، إلى مفاتيح موضوعية لفهم النص وتذوقه وتحليله.

وغنى عن البيان أن البحث فى إبداع الدلالة ووسائله، هو فى جوهره بحث فى (المثيرات اللغوية) الدالة فى النص، سواء أكانت أصواتاً أم مفردات أم تراكيب أم قرائن مجازية. وهذا إجراء لغوى وصفى محض، يفتقر ــ فى النص الأدبى بالذات ــ إلى التغير الأسلوبى الذى يتغيا الكشف عن قيمة المثير اللغوى الدال، وبيان دوره فى إبداع الدلالة.

وإذا كانت الدلالة بعامة هى جوهر كل تحليل لغوى وغايته، فإن دراسة هذه الدلالة على المستوى الإبداعى ــ بخاصة ــ بمنهج لغوى أسلوبى هى جوهر الجوهر أو غاية الغايات.

ولا ينبغى أن تثير كلمة (إبداع) فى أنفسنا إحساساً بصعوبة ضبط العناصر المبدعة فى النص، لأن المنهج اللغوى الأسلوبى الذى ننتهجه فى هذه الدراسة منهج موضوعى، بمعنى أن كل من يعيد تحليل المادة المدروسة بهذا المنهج نفسه، سوف يصل إلى النتيجة نفسها.

والمادة المدروسة هنا تمتد إلى مائة وخمسين عاماً أو مائتين قبل الإسلام. هى مادة الشعر الجاهلى فى عمومها. والشعر الجاهلى لا يغنى معه النظر إليه باعتباره معيناً زاخراً لاستخراج قواعد اللغة، أو مادة ساكنة يستدل بها على حضارة البيئة، وأيام العرب، وطرائق حياتهم ومعاشهم؛ لأنه ــ قبل كل شىء ــ إنتاج أدبى بلغ مستوى رفيعاً من الخلق والإبداع.

ولسنا فى حاجة إلى تأكيد أهمية دراسة لغة الشعر الجاهلى؛ ــ فهى ببساطة شديدة ــ من أهم الوسائل العلمية المساعدة على دراسة اللغة العربية ذاتها وما تتمتع به من إمكانات أسلوبية وافرة.

ولكن الذى ينبغى تأكيده الآن هو أن هذه الدراسة التى بين أيدينا

دراسة (أفقية) لا (رأسية). فهى تبحث عن (جوهر الشعر) ذاته فى الشعر الجاهلى، تبحث عن الإمكانات اللغوية الأسلوبية العامة التى انتهى إليها فى إبداع المعنى، ولا تهدف إلى البحث عن الإمكانات والقدرات والمهارات الفردية التى أظهرها كل شاعر جاهلى فى إبداع هذا المعنى، إلا بقدر ما تحتاج إليه معالجة بعض الظواهر أو ضرورات المقارنة والإحصاء.

إنها دراسة فى (جوهر الشعر) الذى يخفى من بريقه فى دراسات القدماء المعالجات الجزئية الانطباعية، والذى يخفى من بريقه فى أكثر دراسات المعاصرين الانشغال فى جدل القضايا التنظيرية أو رصد الأغراض الشعرية وبعض السمات البلاغية فى إطار كلاسيكى قليل الجدوى.

وقد فصلت هذه الدراسة إلى أربعة فصول:

تحدثت فى الفصل الأول منها عن دور الصوت فى إبداع الدلالة فى الشعر الجاهلى، وهو من المباحث المهمة التى أهملت طويلاً؛ لانعزال النظر النقدى عن المعطيات الحقيقية لعلم اللغة. وركزت على ظاهرتين اثنتين هما: المحاكاة الصوتية، والتقسيم والموسيقى الداخلية. والحق أن الحديث عن هذه الظواهر لم يكن مبنيا على الاجتهاد الشخصى والتذوق الذاتى، بقدر بنائه على ما يمكن أن تسهم به قوانين علم الأصوات فى الدراسة اللغوية الأسلوبية للمعنى.

فى الظاهرة الأولى ميزت بين عدة صور للمحاكاة فى الشعر الجاهلى، وصوبت بعض المفاهيم القديمة عن (التنافر الصوتى)، فرأيت لكثير من حالاته أهمية فنية كبرى وأسميته بـ(التنافر الصوتى الفنى).

وفى الظاهرة الثانية، حاولت أن أربط بين عناصرها التقليدية من تشطير وتصريع ونحوهما، وبين وظيفتها الدلالية من جهة، وأن أربط بعض هذه العناصر ــ كالتصريع ــ بالحالة النفسية للشاعر، وما يمكن أن يفيده هذا الربط فى تفسير بعض الظواهر الصوتية المهمة من جهة أخرى.

وفى الفصل الثانى تحدثت عن دلالة الكلمة، فتناولت الوسائل التى أثرت فى أداء معناها، كالرمز، والإطالة، والترادف السياقى، والتقابل اللفظى، والاستخدامات الشعرية الخاصة، من اختيار وإيثار وابتكار. وهى استخدامات تتبدّى منها المهارة الفردية للشاعر وفعله الإيجابى فى تعديل أبنية الكلمات، وإيثار أبنية على أخرى، وتفصيل كلمات جديدة مبتكرة، إذا اقتضى المعنى ذلك. وتدين كل لغة لشعرائها فى بعض الألفاظ المبتكرة فيها.

وفى الفصل الثالث تحدثت عن دلالة التركيب، عنيت التركيب اللغوى، من قوالب لفظية، ومصاحبات، وتعبيرات، ومزاوجات. وبيّنت مدى تأثير هذه التراكيب فى إبداع المعنى، وما يقدمه بعضها للغة الشعر من قيم الإيجاز والاقتصاد اللغوى.

وقد لاحظت هنا غنى الشعر الجاهلى بنماذج التعبير اللغوى الفنى، ونماذج المصاحبات، والمزاوجات المجازية العجيبة.

وفى الفصل الرابع والأخير تحدثت عن دلالة المجاز فبيّنت ــ على نحو إجرائى تطبيقى ــ تأثيره فى إبداع المعنى الإيحائى، من خلال (الاستعارة)، باعتبارها سمة أساسية من سمات لغة الشعر.

ولم يكن خط السير هنا هو ما اعتاده البلاغيون فى دراساتهم البلاغية المحضة لأركان الاستعارة وأنواعها التقليدية المعروفة، وإنما نحونا فى تحليلها منحى جديداً، ينهض على أساس تصنيفها تصنيفاً دلالياً

موضوعياً، غايته الجوهرية هى التفريق بين أنواعها الدلالية المتشابكة، وبيان حدود كل نوع، وأهميته، ومكانته بين الأنواع الأخرى، وتمثيله لفكر الشاعر وخياله وبيئته، وبيان قيمته فى تحقيق الاقتصاد اللفظى وإبداع المعانى الإيحائية فى آنٍ معاً.

وبالرغم من أن هذه الدراسة قد أفادت كثيراً من المصادر اللغوية والأدبية والبلاغية القديمة، فإنها قد انطلقت فى أساسها المنهجى من بحث الدلالة فى ضوء الدراسات اللغوية والأسلوبية الحديثة، اقتناعاً بضرورة التكامل العلمى بين القديم والجديد مهما كانت صورته.

ومع إدراكنا لما حظى به الشعر الجاهلى من بحوث تطول بها القائمة، وإن تفاوتت قدراتها على التعمق العلمى، فإننا نرى أن باب البحث فى الشعر الجاهلى مازال مفتوحاً، بل إنه ليتسع يوماً بعد يوم لمزيد من الإسهامات العلمية الجادة.

وإذا كان هذا العمل ــ بين ذلك الكم الهائل من الأعمال الأخرى ــ قد أمكنه أن يلقى ضوءاً جديداً على بعض خصائص الدلالة ومقومات الإبداع الدلالى فى الشعر الجاهلى، فذلك حسبه.

والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد أبناء العربية من الطلاب والدارسين.

وما توفيقى إلا بالله...

محمد العبد